هكذا الحب ! . . .

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عزيز منصور

انصرم فصل الصيف بطوله الممل ، وتبعه فصل الخريف ، ولمّا نزل نحن الأربعة : « مارى وبوب » ثم « بيتر وأنا » دائبين على الخروج سوية . أما اليوم وقد مضى على تعطيل (الجامعة) يومان ، فإننى وبيتر واقفان عند مسجل العقود ، نشرف على الاحتفال الذى به سيصبح « بوب ومارى » زوجين . وإنّا لنشعر بأن قلبينا على وشك الانفجار ، لأن الحظ لم يجعلنا مثلهما :

من فوق شعر مارى الفاحم تلاقت نظرتى بعينى بيتر لحظة ، ثم تحولت واستقرت على وجه مسجل العقود ، ذى الوجه العجوز الذى مشت عليه يد السنين بتجعّدات وخطوط عميقة .

— لقد أصبحتما زوجين !

هذا ما افترّت عنه شفتا مسجل العقود المضطربتان ، وعقب ذلك هدوء دام لحظة ، ثم التفّت ذراع (بوب) حول خصر (مارى) وأطبقت على شفتيها الفرمزيتين شفتاه . . . وانتهى كل شىء !

خرجنا إلى الشارع . . . إلى حيث سيارة بوب الفارهة فى الانتظار ، وعلى الرغم مما كان يخالجنى من الإحساسات ، فقد ملت إلى مارى وضممتها إلى صدرى قائلة : وداعاً (مسز كولنس) ... إحرصى أن تكونى سعيدة !

أعان مارى (بوب) على الصعود إلى السيارة ، ووقفنا لحظة نرقب السيارة — حتى ابتلعتها منعطفات الطريق — بأعين حالمة ! ...

— هيا بنا يا عزيزتى ! نطق بيتر بهذه الكلمات بهدوء ، ولكن الانفعال الكامن فيها لم يخف علىّ ... نفس الانفعال الذى طغى على مشاعرى !

أقبلنا على سيارة بيتر القديمة ، ذات المقعدين ؛ ولما استوينا داخلها نظر إلىّ بيتر — وهو يسوق — محاولاً أن يضحك قائلاً :

— أنا حزين جداً ، إذ لا أجد لى أباً غنياً يعضدنى بماله !

فأجبته بقلة اكتراث :

— آه ... إن هذا ليس من الإنصاف والعدالة. إنّ قلبى ليذوب غماً حين أتطلّع إلى «مارى وبوب»، فأرى النعيم يحتويهما ، ثم أنظر إلينا فأجدنى وإياك فى فقر مدقع ! ... هما تزوجا ، أما نحن ؟ ... ربما مرت شهور ، بل سنوات قبل أن نقدر حتى على التفكير فى الزواج ، وإذاً ، فإننا لفى أقصى درجات القنوط فى حبنا هذا !

* * *

كان بيتر يتيما ولو كان قادراً على مجرد الحصول على نفقات الجامعة لدخلها ! ثم إننى لم أكن قادرة على مساعدته ، فإن ما أرسله لى « داد » يكاد بالجهد الجهيد يفى بحاجاتى الضرورية ، ولذلك لم يكن إلى تحقيق أمله من سبيل ، وكان خير ما نتسلل به هو

ابتهالنا أن تتمخض لنا الأيام عن معجزة حاملة السعادة فى طياتها !

فى الليلة التالية كان أروع لقاء عرفنا. فهنالك على بعد ميلين من المدينة بمحاذاة النهر وقف بيتر سيارته الصغيرة على حافة الماء ، وجلسنا ننظر إلى الأفق البعيد !

كانت ليلة ساكنة تجلت الروعة فيها بأبهى المعانى ! فقد كانت أسلاك القمر اللجينية المنسكبة تتخلل الأشجار الملتفة ؛ أما النسيم فكان عليلاً ، ممعناً فى مداعبة تلك الأغصان المجردة عن أوراقها !

قال بيتر : أتذكرين ليلة تلاقينا للمرة الأولى يا كارول ؟ ... فخوطته بيدى وأجبت :

— نعم يابوب لازالت ذكراها عالقة بفكرى . لقد كانت أروع ليلة فى حياتى ! ... نعم لقد كان الوقت ربيعاً وكنت أخاصر « تيد هولواى » فى رقصة « اعذرنى » فى إحدى الحفلات حين أتيت وأخذتنى منه ... ثم لم يعد مجرى حياتى كما كان قبلاً !

صاح بيتر وقد ضمنى إلى صدره :

— كارول ... أيتها الغالية ... هكذا أحبك ، وانهال على شعرى لثماً وتقبيلاً ! وهو يقول : عزيزتى،عزيزتى! يجب أن نبقى هكذا، أليس كذلك؟

— نعم يا بيتر فإنك منيتى الفريدة ... وأنت حاجتى الماسة ! ... وازدادت يداه ضغطاً على جسمى وشفتاه شدة فى لثمى ...

— كارول ! ما أطول هذه السنة ، أنواصل تدمير زهرة شبابنا ، ترى متى نذوق السعادة ! ؟

لم أجب فعاد يقول : كارول لا تنصبى ، أتحبيننى؟

— نعم يا بيتر ... أحبك أكثر من أى شئ آخر ... !

— إذن تعالى معى يا كارول ليلة الغد ... تعالى لنرحل إلى مكان سحيق ولن نعدم مكاناً صغيراً يأوينا، وإنى لقسم لك أنك سوف لا تندمين قط !

فأجبته كمن فقد صوابه :

— آه يا بيتر ... دعنى أفكر ... أمهلنى قليلاً ... آه ... نعم يا بيتر أنا أعدك ، سأذهب معك ؟

* * *

أيقظنى أول خيط من النور نفذ إلى غرفتى فى صباح اليوم التالى ، فلبثت جالسة أسترجع ما مر بى من حوادث اليوم السابق ...

ما شعور فتاة تفكر فى يوم عرسها القريب ؟! حرارة والتهاب ممزوجان ببعض الخوف ، واهتزاز فى كل عضو من أعضاء الجسم ؛ وهذا نفس ما حل بى ولو أننى كنتُ معتقدة بأن حفلة زواجنا لن تقام !

لقد وضعت اليوم حياتى ومستقبلى فى قبضة بيتر ، وكنت إذا خطر ذلك على بالى اشتدت ضربات قلبى ، وتلاحق تنفسى ، مع أن قلبى لم تكن فيه ذرة واحدة من الخوف من جانب بيتر

كان حبى لبيتر جارفاً ، وكان يبادلنى نفس الحب فلماذا لا تكون مراسيم زواجنا رائعة كحبنا ؟ ! هذا ما ظللت أفكر فيه

نهضت من فراشى وقصدت النافذة ، وما ألقيت على السماء نظرة حتى أحسست بقشعريرة تسرى فى بدنى ! لقد كان اللون الرمادى لون السماء فى ذلك اليوم ، وكانت الغيوم الشبيهة بالثلج متكدسة على أبعاد مختلفة فى الجو ، أما الشمس ، فلم يكن يبدو من أشعتها أثر !

انثنيت لارتداء ملابسى ، فأخذت أنتقى الملابس

الخضراء اللامعة لطوق الفرو الذى يعشقه بيتر . ثم أقبلت أخطر أمام المرآة وأصلح هيئتى ، وأنا أعجب لأننى قد اكتسبت هيئة من على أهبة الزواج !

خرجتُ لأستقل القطار إلى « نيوبرى » حيث بيتر فى انتظارى، ومن حسن حظى أن أدركت القطار قبل سفره بدقائق وجيزة فكان علىّ أن أنتظر بضع دقائق فى المحطة ، وكنتُ أشعر أن هذه السفرة إلى « نيوبرى » ستكون أطول مرحلة أقطعها فى حياتى !

وأخيراً ... هدأت حركة القطار ووقفت عرباته فنزلت أسير بهدوء، وما كدت أقطع بضع خطوات حتى لاح لى بيتر مقبلاً نحوى بخطى واسعة والبشر باد على محياه ، أما أنا فكان ما صرفته من جهد فى مجيئى وما بذلته لمقاومة الأفكار المتباينة المتوالية على فكرى قد جعلنى شبه مريضة واهية القوى !

قال بيتر :

— لقد تخيّلتُ أن هذا القطار اللعين سوف لا يصل إلى هنا أبداً . . . قال هذا وهو يلتقط حقيبة ملابسى بإحدى يديه ويلف الأخرى حول ذراعى ، وبعد قليل أردف : لقد بدا لى أننى منتظر سنين قبل مجيئك يا عزيزتى

وفجأة زال صداعى فهدأ قلبى وزال منه ما كان يلاحقه من شك ، فافترّ ثغرى عن ابتسامة طرب لها بيتر ، وقال وهو يأخذ بيدى إلى سيارة صغيرة مغلقة واقفة بجانب الرصيف :

— هذه سيارة « دكس » ، لقد استعرتها منه لنقضى بها حاجاتنا . فسألته :

— أين نحن ذاهبان ؟

— إلى قرية فى « دارتمور » لى معرفة بها ، وهى تبعد عنا قرابة مائة وخمسين ميلاً ، وإننى لأتنبأ بأنك ستتعلقين بها متى رأيتها !

امتطينا السيارة الصغيرة ، وأخذت الأميال تنطوى وذهبت أفكارى تسبح فى أودية الخيال وتدور حول ما أنا مقدمة عليه من مغامرة مجهولة العواقب، فكنت أنقبض تارة لحماقتى وأبسم أخرى معللة نفسى بأن لا حياة بلا مغامرات !

كان الإعياء قد ذهب بشهيتنا فواصلنا السير دون توقف ، وحين جاوزت الساعة الثانية بعد الظهر أشرفنا على فندق صغير جذاب مطل على الطريق

شعرنا بشدة انخفاض الحرارة عند نزولنا من السيارة ، إذ أخذ الهواء القارس يقرسنا بشدة ، ولكن سرعان ما دبت الحرارة فى عروقنا عند دخولنا الفندق الدافئ . انهمكنا فى الأكل بتوانٍ . . . وبعد انتهائنا ألفينا الساعة مشرفة على الثالثة والنصف فهرعنا إلى السيارة وواصلنا السير

ازداد الظلام حلوكة ، وغدت السماء كالقار فى السواد ، وكان الرعد المتواصل مما يدخل الرهبة فى القلوب !

قال بيتر بصوت لطيف لتهدئة روعى :

ربما نزل بعض البَرَد . . .

ثم أردف :

ولكن بلوغنا الهدف سيكون قبل أن يتراكم

بلغت الساعة السادسة ولما يزل أمامنا أميال عدة دون غايتنا وأخذ الصقيع ينزل بشدة والسماء شديدة العتمة . . . والطرق التى أخذنا نسير فيها ذلك الوقت ضيقة ملتوية مما جعل مواصلة السير من الصعوبة بمكان، ولكن على الرغم من كل ذلك تشبثنا بأهداب الجرأة فواصلنا سفرنا حتى صاح بيتر بعد لحظة :

— أنقف هنا ياعزيزتى ؟ إنها آخر مدينة تفصلنا عن القرية التى نقصدها . فأجبته بثبات : لنواصل السير فأنا لست خائفة !

دب البرد بين مفاصلى واعترى التشنج جسمى، وتخدرت جميع أعضائى لطول المرحلة ، ولكننى لم أفه بكلمة واحدة تفضح ما أنا فيه من سوء، فقد كنت أرى بيتر جاداً فى السير بغية وصول دارتمور ولم أكن أريد أن أخذله

عدا التعب والتأخير فى السفر ماذا يمكن أن أخافه ؟ ؟ قطعنا عشرة أميال أخرى قبل أن أعرف الجواب على سؤالى هذا ! فقد أخذت أرمق بقلق تلك القطع الثلجية المنهمرة خلال الزوبعة الرهيبة ، وبدأت أشعر بأن هنالك شيئاً يخشى منه ! وبملاصقتى لبيتر شعرت بأنه يحس نفس ما أحسه ، وذلك من جراء تصلب أعضائه وتجهم وجهه

لم تكن عاصفة اعتيادية تلك التى داهمتنا فى سفرنا ففى خلال خمس الدقائق التالية تحولت إلى زوبعة عنيفة وأضحى صفير الرياح يعلو دوى آلات السيارة وكانت القطع الثلجية تصيب زجاج السيارة بشدة حتى لقد غدت جميع نوافذها قطعة من ثلج ! ولم تستطع آلة التنظيف الأمامية إزالة الثلج إلا عن مسافة جد قليلة مقابل عجلة القيادة فقط

انحنيت قليلاً مصوبة نظرى إلى الطريق فى خلال تلك المسافة المزال منها الثلج ، فأبصرت بالطريق قد اندرست معالمه لما تراكم عليه من ناصع الثلج ، ولم تكن عين الناظر قادرة على اختراق الظلام الدامس أكثر من خمس أقدام ، فالتفتت إلى بيتر قائلة :

— بيتر ! من الخير لنا أن نقف !

فأجاب بتقطيب :

— أتقولين الآن هذا ؟ لو كانت هذه رغبتك لفعلنا قبل الآن ... أما ونحن فى هذا المركز الحرج لا يسعنا إلا أن نواصل السير لعلنا نعثر على بيت أو « جاراج »

لم تزحف السيارة بنا سوى أقدام قليلة حتى بدأ الخوف الكامن فى قلبى يتضخم ويوحى إلى بنزول كارثة عظيمة ! أخذت بعين الخيال أبصر بسيارتنا مارقة كالأعمى ، وعلى حين غرة تركد فى أحد الأخاديد وحينئذ ماذا سيحل بأجسادنا ! ؟ ستقذف ولا شك بقوة هائلة إلى جب من الجليد التراكم وتسد السيارة علينا سبل النجاة حتى تجمد منا الدماء وتخمد الروح !

ولما انتبهت إلى نفسى وجدت الدم يتفجر من شفتى وكان ذلك من جراء إطباق أسنانى عليهما لأكتم صرخة هائلة كادت أن تفلت لما أوحته لى تخيلاتى !

وأخيراً ... أوقف بيتر السيارة وضغط على المصوت طويلاً ثم قال :

— إنما فعلت ذلك لكيما يفزع من يسمعه لنجدتنا ، ثم دفع باب السيارة بقوة وألقى بنفسه إلى الخارج على صفحة الجليد اللامع ... وبعد قليل هب واقفاً واندفع يردد هاتين الكلمتين : هالو ، هالو ... وكان صدى صوته يطرق سمعى وكأنه آت من مكان سحيق !

* * *

كان الهواء يندفع بقوة نحوى ، وقطع البرد المتناثرة تلسع وجهى لسعات السوط فصرخت بهلع : بيتر ...! هيا إلى الداخل يا عزيزى . فسمت صوته بعد لحظة قائلاً : كارول حبيبتى هأنذا آتياً ... ولما

وصلنى طوقى بذراعيه وهو يقول : ما أشد كآبتي على هذه الورطة التى زججتك بها أيتها العزيزة ... ليتنا لم نأت !

أحسست بوجهه وهو يلثمنى كأنه قطعة من ثلج ولكن شفتيه كانتا تشعان حرارة ... ومرت لحظة ونحن متشبثان بعضنا ببعض فى يأس قاتل !

تنهدت من أعماق نفسى قائلة : بيتر أيها العزيز سنتضامن حتى النهاية وسنلق الخطوب بثغر باسم . وأخذت أحلم بأن حبي لبيتر يفوق أى شيء فى العالم !

قطع بيتر تلك النشوة السحرية التى غمرتنا بقوله : يجب علينا الآن مواصلة السير ...

ما سارت السيارة قليلاً حتى حدثت المعجزة !

هنالك ... خلال الضباب الأبيض الذى كان يلوح أمامنا ، بدأ نور ضئيل متأرجح ، وبكل صعوبة قدرنا على سماع صوت خافت يقول : من ... من هناك ؟ ثم لم يلبث أن تمالى ، وفى الوقت الذى وقف بيتر السيارة تبلج الظلام عن شبح رجل حامل مصباحاً ...

وقف الرجل يرمقنا لحظة ، ثم استدار وأومأ لنا بمصباحه أن نتبع !

فقال بيتر وهو يكاد يرقص فرحاً : كارول ... لقد نجونا ، فلله الشكر !

— نعم ، شكراً لك يا رب ... ربما لم نكن نستحق هذا العطف ولكنك أشفقت علينا وأنقذتنا فشكراً لك !

أخرجت هذه الكلمات من قلب مفعم بالإيمان ونفسى مغمورة بنشوة النجاة

كان ملجؤنا بيتاً صغيراً مطلاً على الشارع ، قادنا إليه المنقذ ، وإذ وصلنا وقفنا السيارة وأخذنا نجر منها أجسامنا إلى الخارج جراً . ومن خلال الباب المفتوح الذى وقف الرجل ، ذو المصباح ، بجانبه ، نفذنا إلى الداخل

أحسست برئتى سليمتين حادتين ، فتهالكت على الكرسى الكبير غارقة فى خواطرى ، وإذا بيتر ينحنى على قائلاً : أحالتك رديئة ؟ فأجابته محاولة الابتسام : كلا يا عزيزى إننى بخير

كان الرجل واقفاً بقربنا وقد أولى الباب ظهره ، وكان المصباح لا يزال يتدلى من إحدى يديه ، أما عيناه فكانتا تتطلعان نحونا بفزع ورعب ، صاح بنا بصوت أجش :

— من أين قدمتما أيها الغريبان ؟ أمسكت بيد بيتر بقوة وطفقت أفكر فى أن هنالك بلا شك بعض الالتباس ، ذكر بيتر للرجل اسم آخر مدينة مررنا بها ، فقال الرجل :

— هل رمقت عيناك شخصاً قادماً إلينا ؟ فأجاب بيتر باستغراب :

— هل من شيء خطأ أيها الرجل ؟ لست بقادر على إفادتك بالجواب !

— خيبتك الطبيب ... لقد بقيت فى انتظاره حتى ساعة متأخرة ...

— الطبيب ؟ قالها بيتر بدهشة ، فأومأ الرجل بعينيه وهو ينقلهما إلى الباب خلفنا قائلاً : هى زوجتى ، إنها ... إنها حامل ونحن بأمس الحاجة إلى طبيب !

لم يكن الرجل أكبر من بيتر سناً ، ولقد كان للتقلصات البادية فى وجهه ، ومظاهر الآلام المتجلية عليها ، أعمق الأثر فى قلبي وأشد الحزن ! سألت الرجل :

— هل هي وحيدة ؟

— كلا ، ليست وحيدة فإن أمها لا تفارقها لحظة ، ولكننا في حاجة إلى حضور الطبيب مسرعاً فإنها على وشك الوضع

— آه . إن ذلك لمحزن حقاً ! قلت ذلك بصوت شبيه بالصراخ . فنظر الرجل إليّ وكأنه يراني للمرة الأولى ! ثم التفت إلى بيتر قائلاً :

— هل تملك في سيارتك من البنزين كمية كافية ؟

— نعم .

— إذاً ، دع زوجتك تذهب هناك — مشيراً إلى ما وراء الباب — لكي تدفأ بالنار . أما أنت فإنك ستقلني إلى المدينة !

— إلى المدينة ؟ ! انفجر بيتر غاضباً ... عمّ تتكلم يا رجل ؟

فأجاب الرجل بصرامة وإصرار :

— يجب على أن أخطر الطبيب .

فأجابه بيتر وهو يهتز :

هل جننت ؟ ... إن المدينة على مدى عشرة أميال من هنا ، وليس بإمكاننا الوصول إليها في هذه العاصفة مطلقاً !

— ولكن ذلك ليس مستحيلاً ! ... سنصلها بسلام ، فإن معرفتي بكل شبر من الطريق لكفيلة بذلك ! ...

أعقب هذا الكلام فترة صمت كان تنفسي خلالها محبوساً ، وإذا بيتر يواجهني بنظرة دلت على الحيرة والالتماس ، فحملقت في وجهه ، وقلت بصوت كان إلى الهمس أقرب منه إلى الكلام :

— يجب أن تذهب !

— وأنت ؟

— أنا ؟ . . . أنا سأكون في أتم صحة !

فأمسكني وضمني إلى صدره وهو يقول :

— لا تقلقي إذا ما تأخرت قليلاً فإن الأقدار التي أسعفتنا في محنتنا تلك ستسعفنا ثانية في هذه المرحلة ! ثم التفت إلى الرجل قائلاً :

— سنذهب إلى المدينة ... أنا أعدك بذلك !

وكأن الرجل كان يتوقع هذه النتيجة إذ سرعان ما قال :

— أسرع أيها الشاب فالوقت أثمن من أن نقضيه في الكلام !

ولبثت ممسكة رأسي بيديّ وأنا ناظرة إليهما حتى ابتلعهما ظلام الطريق !

وبعدئذٍ ... أحسستُ بجفاف في شفتي منعني عن الكلام ، أما قلبي فكانت ضرباته العنيفة شاهدة على ما كان يخالجني من الهلع والشك !

وبينا أنا في تلك الحال إذا بباب يفتح بجانبي ، وإذا بامرأة طويلة الجسم كئيبة المظهر تبدو منه ... وكان منظرها مما جلب لي الاطمئنان فأخذت أتنفس عميقاً وأحسست ببعض الارتياح . قالت المرأة :

— أظنه الطبيب ذلك الذي كان هنا ؟

— كلا ... لم يكن الطبيب ... أنا ... أنا مسز أندروود ، ولقد صاحب ابنك زوجي لدعوة الطبيب ونصحا لي بالبقاء هنا في الانتظار

— حسن ، خير لك أن تأتي إلى الغرفة الأخرى فهي أدفأ

تبعتها بهدوء إلى الغرفة الأخرى وكانت غرفة جلوس صغيرة الحجم قذرة ذات أثاث مبعثر ولكنها ساخنة لكثرة ما كان يشتعل من أخشاب ضخمة في إحدى زواياها

قلتُ للمرأة بلهجة صادقة :

— حقاً ، لقد أمضنى مرض ابنتكم فهل من شىء أقوم به ؟

فأجابت وهى تمرر أصابعها خلال شعرها :

— كلا ... نحن فى حاجة إلى الطبيب ! إن لى بشئون التمريض والولادة إلماماً لا بأس به ، ولكن هذه الحال ما أشد اختلافها عما تعلمته !

وفجأة قطع علينا الكلام أنينٌ خافت متقطع .. أنين جد الدم فى عروقى !

والتفتت المرأة إلىّ على عجل وقالت :

— معذرة ! ... وولجتْ باباً على يمينها

ألقيت نظرة خاطفة على غرفة النوم، تلك الغرفة التى دخلتها المرأة الآن ، وحبست تنفسى بقوة حتى انطبق الباب ثانية فحجب الداخل عن نظرى

وجه نحيل ناصع البياض شبيه بوجه المحتضر ، وكمية من الشعر الفاحم تكدست هناك فوق الوسادة بنت لا تكبرنى سناً كانت هناك فى حالة من الألم لم أرها فى حياتى قط . فوجدتنى أهمس قائلة :

— آه يارب ! ساعدها .. وساعد بيتر كذلك

* * *

كانت ساعة المنضدة تشير إلى الثامنة والدقيقة الخامسة عشرة . ألا ما أطول ما سيستغرقونه فى البحث عن الطبيب ، وما أطول ما سننتظر نحن على هذه الحال !

تهالكت على الكرسى وأنا أتجلد على محنتى .. وكانت الساعة تواصل ضرباتها الخافتة، وبالتدريج شرد فكرى ثانية إلى تينك اليدين العاريتين الناحلتين !

الساعة الثامنة والربع ... الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعون ... التاسعة

خيل إلى أن جلستى ستطول إلى الأبد لا أرى سوى تلك الساعة المجنونة مواصلة ضرباتها ... لا أشعر بغير ذلك الفزع والألم ... ولا أسمع سوى تلك التنهدات الموجعة وذلك الأنين المتقطع المخيف الصادر من الغرفة الثانية !

ذهبت بأفكارى إلى حيث بيتر وذلك الزوج الصغير القانط وهما يقودان السيارة فى هذا الليل الحالك وهذه الزوبعة الجارفة ؟ ألا يزالان فى السيارة إلى الآن ؟ ! ألا يمكن أن يكونا قد تردیا فى إحدى الحفر فأطبقت السيارة عليهما واستحال عليهما الخروج ؟!

ومئات من هذه الأفكار أخذت تتهافت إلى إلى فكاد يصيبنى منها الخبال . ولكننى أخيراً عزمت على إبعادها عنى فاندفعت نحو النرفة ، وكان همى أن أجد ما أفعله الآن ... شيئاً يمكننى أن أمد يدى بالمساعدة فيه ولو قليلاً ! وكان ما ينبعث من الغرفة المجاورة أصواتاً قليلة جدا ... وقد طرق سمعى مرة أنة محزنة خافتة تندت لها عيناى بالدموع !

جاوزت الساعة العاشرة بقليل عند ما رجعت المرأة إلى غرفة الجلوس ثانية بوجه شاحب وجسم متقوس دل على ما كانت تعانيه من النصب والكآبة. أقبلت على قائلة :

— هل لك أن تسخنى نزراً من الماء ... ؟ ولكن لا ... املأى كل آنية يمكنك العثور عليها!

— آه ... نعم ! وهرعتُ إلى الغرفة السفلى

مغتبطة بهذا العمل الذى كنت أتوق إليه !

— يمكنك أن تعدّى قليلاً من القهوة أيضاً .

قالت المرأة هذا وقد تبعتنى إلى الباب ، ثم أردفت :

سيكون الرجال فى حاجة ماسة إليها عند رجوعهم !

أجبتها بجرأة : عند رجوعهم ؟ أو تعتقدين حقاً أنهم سيعودون ؟

فأجابت ببساطة :

— لا شىء يحول دون رجوع توم !

أحسست بشجاعتى الواهيـة تنتعش للهجة التوكيدية التى بدت فى كلامها ، وانهزم بعض ما كان حائماً حولى من أفكار سود ! ولكن هذه الشجاعة المنتعشة أشرفت على التضعضع والزوال مراراً قبل أن يبلغ انتظارنا نهايته !

امتد عقربا الساعة يشيران إلى انقضاء عشرين دقيقة بعد الثانية عشرة ، وفى هـذه اللحظة دار مصراعا الباب بعنف واندفع إلى الداخل ثلاثة رجال كان كل منهم أشبه بتل جليدى صغير ! وكان الإعياء بادياً عليهم بأجلى مظاهره لما قطعوه من بعد المسافة !

اندفعوا إلى الداخل بترنح . ولما تمالكت صوابى أخذت أصرخ :

— بيتر ! . . . آه يا بيتر ! وفى لحظة غدوت بين ذراعيه !

جلست وبيتر حول النار ، أما الطبيب وتوم فقد ذهبا إلى الغرفة المغلقة . . . سألنى بيتر بصوت خافت :

— هل هى فى خير ؟

— لا أعلم . . . هى هادئة جداً وأخشى أن تكون . . . فقاطعنى بيتر بعنف :

— كلا ، لا يمكن أن تكون :.. إن شيئاً من ذلك لا يمكن أن يحدث لتلك الصغيرة ! ورأيت يديه تتصلبان ، وكان فى نظراته تعبيرات شتى لم أر مثلها قبلاً ! وعاد يقول بهمس : هكذا الحب ! ... إنه حب خليق بالتبجيل ... كارول ! أنت تعلمين ما يكنه لك قلبى من حب وإخلاص ، ولكن ... ولكننى هذه الليلة اطلعت على حب لم أر له فى حياتى مثلاً !

صرخت بقوة :

— بيتر ! ماذا تعنى . . . ؟

ولكنه واصل كلامه قائلاً :

— آه يا كارول . . . تمنيت لو كنت معى لترى « توم » وما قام به . لقد قطعت القسم الأكبر من الطريق الموصل إلى المدينة تحت إرشاداته . . . وانتعل الأرض الجليدية بقية الطريق لكى ينظف بيديه زجاج السيارة الأمامى ، وكان من جراء ذلك أن أصيبت إحدى يديه بالبرد الشديد ، ولكنه لم يضع أى وقت لإسعافها ! ذلك ما قام به توم ! وإنه ليدل على عظم حبه لزوجته وتفانيه لها حتى لقد كاد يضحى بنفسه فى سبيلها . ألا ما أروع هذا الحب !

وما انتهى بيتر إلى هذا الحد من كلامه حتى طوقته بذراعى هامسة :

— آه يا بيتر . . . يا عزيزى !

وكان النصب الشديد قد أخذ منه كل مأخذ فألقى برأسه على صدرى ولبثت ممسكة به كالطفل ، وفى هذه اللحظة أدركت حقيقة الحب وقدسه !

رفع بيتر رأسه ونظر إلىّ لحظة ثم قال :

— كارول ! سنرجع إلى البيت غداً ! لقد ركبنا متن الشطط بسفرنا هذا فعلينا أن نتلافاه ... علينا أن نعود إلى مدينتنا ... ويجب أن نعمل ... وننتظر ، ثم بعد أيام سنكون زوجين وسط احتفال كبير يليق بك ، فإنك بهذا أحق مما كنا ننوى فعله ! ...

— بيتر ... حبيبي بيتر !

قلت ذلك بنعومة متناهية ، وكان قلبي يرقص من فرط السرور ، وعندما رجع إلى أذنى صدى كلماتى كانت شفتاه قد أطبقتا على شفتىّ ، ويداه ممسكتين يدى بقوة ... وجسمه ملتصقاً بجسمى .

وأخذ يغمرنى بالقبلات ، وبعد لحظة ، أخذ كل منا يرمق صاحبه بنبطة وجذل !

انفتح باب الغرفة المجاورة واندفع توم خارجاً بقوة ، وقال بصوت ظهرت منه رنة الفوز والسرور معاً :

لقد ربحنا ... والشاهد على ذلك طفلى الصغير !

وفى نشوة تلك اللحظة تطلعت عيناى إلى المستقبل القريب ... إلى اليوم الذى يدوى فيه صوت بيتر بمثل هذه الجملة ، وفى عينيه بريق شبيه بالبريق المنبعث من عينى توم !

ناصر عزت منصور

شركة مصر للملاحة البحرية

ببواخرها الفاخرة وفنادقها الأنيقة

تسير بكم على بركة الله الى بيت الله الحرام

وبنك مصر يؤدى لكم جميع الخدمات المصرفية ويتولى عنكم دفع الرسوم

فخذوا أهبتكم للحج هذا العام

لجميع الاستعلومات عن :

شركة مصر للملاحة البحرية وفروعها

القاهرة : عمارة بنك مصر القاهرة ١٥١ شارع عماد الدين تليفون ٤٠٧٤٢ — ٥٧٠١٦

الاسكندرية : شركة الملاحة ١٤ شارع فؤاد الأول تليفون ٢١٥٤٦ — ٢١٥٤٧

بور سعيد : شركة مصر للسياحة شارع السلطان حسين تليفون ٤٧٧

السويس : شركة مصر للملاحة البحرية شارع سعد زغلول تليفون ١٢

ومن شركة مصر للسياحه بالقاهرة

شارع ابراهيم باشا تليفون ٤٥٩٦٠ — ٤٦٣٠٣